الاستهلال - التخلّص - الانتهاء
في شعـــر ظافـــر الحدّاد(ت: 529هـ)

أ. زهرة العارف الطيب محمد

كلية التربية صرمان/ جامعة صبراتة

الملخَّص:

يتمحور موضوع البحث حول الدراسة الفنية في شعر (ظافر الحداد) الشاعر الفاطمي من ناحية الاستهلال، والتخلّص، والانتهاء في شعره، ولامست جيد الاستهلال وجيد التخلّص والانتهاء عنده، وميّزته عمّا أخفق فيه من الاستهلال والتخلّص والانتهاء وكان هذا في مواضع قليلة من شعره، وكانت هذه الإضاءة مدعومة بالشواهد الشعرية من ديوان الشاعر، وأردفت هذه الشواهد بشرح وتحليل فني ونقدي للأبيات المعنية والتي كان معظمها في المديح؛ لأنّ ديوان ظافر يُعدّ ميدانًا رحبًا للمديح لا سيما السياسي منه.

Research Summary

The topic of the research revolves around the technical study in the poetry of (Dhafer Al-Haddad), the Fatimid poet in terms of initiation, disposal, and ending in his poetry. A wide field for praise, especially the political one.

مقدّمة

الحمدلله رب العالمين، وصلِ اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فدراسة الشعر من الناحية الفنية والنقدية ضرورة ملحّة للولوج إلى بناء القصيدة ولما في هذا من تثقيف للأفكار، وتنمية للذوق، ومن هنا وقع اختياري على دراسة جانب

مهم لشعر (ظافر الحداد) الشاعر الفاطمي، وهو جانب الاستهلال، والتخلّص، والانتهاء، أو كما سمّاه صاحب العمدة (ابن رشيق) المبدأ، والخروج، والنهاية[1]، هذا الجانب من شعره الذي امتاز فيه أسلوبه بالسلاسة وجادت معانيه بالإبداع، ولكن قبل الدخول لموضوع البحث رأيت أهمية التعريف بهذا الشاعر، فهو علم من أعلام الشعر والأدب في العصر الفاطمي، فقد صنّف شعره في المراتب المتقدمة في تصنيف القرنين الرابع والخامس الهجريين، فشاعرنا هو: (أبو المنصور ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله ابن خلف بن عبد الغني الجذامي الإسكندري) [2]، ويرجع نسبه إلى قبيلة جذام، وهي قبيلة يمانية تنزل بجبال (حسمي)، لم أجد في المصادر التي وقعت بين يدي تاريخًا يحدد سنة ميلاده، فسنة ميلاده يكتنفها الغموض، فهو شاعر مغمور لم يلاق حظه من الشهرة التي يستحقها.

وفاته: تكاد تجمع المصادر على أنّ ظافر الحداد توفي سنة 529هـ[3]، لإجماع معظم المصادر التي ترجمت له ومنها وفيات الأعيان لابن خلكان، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، ومقدّمة ديوانه، فوفاة الشاعر مثل ميلاده ونشأته اكتنفها الغموض لضياع المصادر التي أُلّفت في العصر الفاطمي، عند قيام الدولة الأيوبية السُّنِّية التي حاولت محو كل ما له علاقة بدولة شيعيّة المذهب، وبعد هذا التعريف بالشاعر استوجب هذا البحث أن أُقسم محتوياته بعد التمهيد إلى ثلاثة مباحث.

حيث تناول المبحث الأوّل: الاستهلال في شعر ظافر.

المبحث الثاني: التخلّص عنده.

المبحث الثالث: الانتهاء في قصائده.

ثم ختمتُ بما توصّلت إليه من نتائج وتوصيات، وذيلته بملخّص مجمل للبحث ومن ثم بالهوامش.

المبحث الأوّل: الاستهلال في شعر ظافر

الاستهلال:

اعتنى النقّاد بمطلع القصيدة اعتناء كبيرًا، إيمانًا منهم بقوة ما يتركه المطلع من أثر جيد، أو سيء في نفس المتلقي، فحسن التنبيه والإصغاء إنْ كان مطلع القصيدة جيدًا، أو إلى فتور وانصراف إنْ كان رديئًا أو داعيًا للتطيّر أو التشاؤم.

(ابن رشيق) كان من أكثر النقاد عناية بمطلع القصائد، وحسن استهلالها، فقد عرَّض لها في كتابه (العمدة) في أكثر من موضع، يقول في إحدى هذه المواضع: "وبعد، فإنّ الشعر قفل أوله مفتاحه، وينبغي أن يجود ابتداء شعر؛ فإنّه أوّل ما يقرع السمع، وبه يستدل على ما عنده من أوّل وهلة"[4]، وينبه (ابن رشيق) إلى تحاشي استخدام بعض المصطلحات التي قد تُضعف الابتداء في الشعر فيقول: "وليتجنب (ألا) و(خليلي) و(قد) فلا يستكثر منها في ابتدائه؛ فإنها من علامات الضعف والتكلان، إلا للقدماء الذين جروا على عرق، وعملوا على شاكلة، وليجعله حلوًا وسهلًا، وفخمًا جزلًا"[5] وقوله في موضع آخر من كتابه: "وليرغب عن التعقيد في الابتداء؛ فإنّه أوّل العيء ودليل الفَهَّة"[6] وظافر كغيره من شعراء عصره أجاد في بعض مطالع قصائده، وأخفق في بعضها الآخر، ومن مطالعه الجيدة ما قاله في مدح الآمر[7]:

هذا الإمام إمامي حاضرٌ بادي *** فاليوم أشرف أيامي وأعيادي

هذا مقام سما عن كل مرتبةٍ *** تسمو لها في المعالي نفسُ مرتاد[8]

فهو من الابتداءات الجيدة لارتباطه بالموضوع من ناحية، ورفعه لقدر الممدوح بوصفه له بالإمام الذي هو الخليفة الحاكم عند الفواطم.

وفي قصيدة أخرى يمدح فيها الخليفة الآمر استهلها بقوله:

بكم آل وحي الله يفتخر المجد

وفيكم يسوغ المدح والشكر والحمد

وما ينتهي فيكم ثنا الشعر غايةً

ولكنَّه حسب الذي يبلغ الجُهد

إذا أنزل الله الكتاب بِمدحكم

فكم قدر ما يأتي به شاعرٌ بعد؟

فهو من المطالع الحسنة لارتباطه الوثيق بموضوع القصيدة، وما فيه من علوّ وسموّ بالممدوح لدرجة افتخار المجد به ونسبه العلوي الشريف.

ومن حسن مطالع شاعرنا قوله في مدح الآمر، مهنئًا إيّاه بتعافيه من المرض[9]:

تباشرت المدائح والقوافي

مذ اتصلتْ بمولانا العوافي

وهذْبتِ الخواطر كلّ معنى

كما راقت معتّقة السُلاف

وبرَّدت المسرة كلّ قلبٍ

يُحرق بالأسى حُلل الشِغاف[10]

فاستهلال القصيدة بالبشرى من الاستهلالات الجيدة التي تعبّر عن الفرحة بشفاء الآمر الذي كان له وقع الفرح والسرور في قلوب الرعية.

ومن جيد استهلالات الشاعر أيضًا في قوله في قصيدة مدح فيها الآمر[11]:

صلى الإله عليك يا بن رسوله

وهدى لطاعتك الورى لسبيله

فابتداء القصيدة بإثبات نسب الآمر للرسول ـ صلّ الله عليه وسلّم ـ هو من الاستهلالات الجيدة رغم ما فيها من المبالغة والغلوّ، حيث خاطب الشاعر الممدوح بما يحب أن يسمع ،وهو تذكيره بشرف نسبه ؛ ليزيد عزيمته ويقوّي همّته، فالهدف من القصيدة من الدعوى إلى محاربة الروم أعداء الإسلام وليس يوجد أفضل من هذه البداية لتحقيق غرضه وبعث روح الحماس والأمل في قلب الآمر.

ومن جيّد المطالع عند ظافر قوله في قصيدة له [12]:

لهذا الجلال الذي لا يرام *** معانٍ تحيّر فيها الكلام

وقد طوّلت وصفها المادحون *** وأقصر ما مرّ فيها التمام

وهذا استهلال رفيع المستوى يتلاءم وقدر الممدوح، فالاستهلال بإسم الإشارة وقبله لام الملك، يؤكد ما وصف به الخليفة من رفعة ويقصرها عليه، كذلك وصفه جلال الممدوح بكونه فريد من نوعه قبل الإخبار عنه، وفي مطلع لقصيدة أخرى يُهنئ الأفضل[13] بقدوم شهر رمضان[14]:

بجلال قدرك تفخر الأزمان

وأشد مفتخر به رمضان

فالشاعر هنا يكشف عن خبرة فائقة في مجال حسن الاستهلال، حين جعل الأزمان كلها تفخر بجلال الممدوح ورفعته، حيث عمّم الفخر على جميع شهور السنة وخصص منها شهر رمضان الذي كان فخره بالممدوح أشد من باقي الشهور، بل إنه لو قدر على النطق

وتقديم التهاني للخليفة لفعل ولم يتأخر فلا أحد والحال هذا يشكك في أن ظافر سيُضمن قصيدته تهانيه وتهاني الأمة لإمامه في شهر الصيام[15].

والحق أن ما ذكرناه من جياد المطالع لشاعرنا ظافر مستوفاة للشرائط التي حددها النقّاد، فإن اختل أحد هذه الشروط فقد المطلع قيمته، وعابه النقّاد ومن ذلك قول ظافر للأفضل مهنئًا له بالعيد[16]:

بدا شيبه قبل ابتداء شبابه *** ووليَّ الصِّبا عنه عقيب اغترابه

فالحديث عن ظهور الشيب وتولى الشباب، من الألفاظ التي تولّد في سامعها التشاؤم، وقتل ما لديه من الحياة، ولذلك كان الأجدى بالشاعر أن يضمن استهلاله ما يشرح الصدر ويولّد الطمأنينة في النفس، ويبعث على التفاؤل، لاسيما أنّه يعلم أنّه أمام خليفة الأمة، وأنّه يمتدحه لنيل فضله ومن سوء المطالع ما قاله في قصيدة يمدح فيها الخليفة[17] الحافظ[18]:

لا غرو أن رحل الشباب وبانا

وما كان أوّل من صحبت فخانًا

ومن خلال ما سبق نلحظ أن ظافرًا من الشعراء الذين أحاطوا مطلع القصيدة اهتمامًا كبيرًا، فقد فهم النظرات النقدية لقدماء النقاد، وحاول الاستفادة منها في مفتتح أشعاره، فجاءت استهلالاته في معظمها معبّرة عن مقدرة فنيّة وتكشف عن ذوقٍ راقٍ في مخاطبة أصحاب المراكز الرفيعة.

المبحث الثاني: التخلص عنده

التخلص عنده:

إنّ بعض النقاد ومنهم صاحب العمدة يسمّي التخلّص بالخروج: "لأنّ الخروج إنما هو أن تخرج من نسيب إلى مدح – مثلًا – أو غيره بلطف تحيل، ثم تتمادى فيما خرجت إليه"[19].

واشترط النقّاد العرب على هذا الانتقال، أن يكون سهلًا لا صعوبة فيه، ميسورًا أو متّصلًا بما قبله، وإلا فإنّه يُعدُّ طفرًا وانقطاعًا[20]، يؤدّي إلى التناقض في معاني القصيدة، والتكلّف في نسجها.

ومن النقّاد من يرى أنّ التخلّص لا يكون حسنًا، إلاّ إذا خرج الشاعر ممّا ابتدأ به من مدح أو غزل... أو غيره إلى الغرض الذي أنشئت لأجله القصيدة بكل سلاسة ولطفٍ، فلا يشعرنا بالمفاجأة عند الانتقال، حتى يجعل القصيدة مربوطة برباط خفي، يجعلها في إطار واحد متناسق ومنسجم انسجامًا تامًا.

وقد عُني شاعرنا بحسن التخلّص في شعره، فأصاب أحيانًا وأخفق حينًا آخر، فمن حسن تخلص الشاعر وخروجه، قوله في قصيدة مدح فيها الوزير الأفضل، مهنئًا إياّه بعيد الفطر، حيث استهلها بالغزل فكان مطلعها[21]:

لمن الشموس غربن في الأحداج

وطلعن بين الوشي والديباج؟

ثم انتقل إلى وصف فراق من كان يعوّل على حبهّا وتخلّص إلى المدح فقال[22]:

خانوا ودمت على الوفاء ولم أحل

في ذاك عن خلقي ولا منهاجي

خلق تقهقر عن طريق مذلّةٍ

وتلوح أسباب العلى فيفاجي

حتى مدحت اجلّ من وطئ الحصى

فأفادني أضعاف ما أنا راج

الأفضل الملك الذي فاق العلى

شرفًا فأخمصه لها كالتاج

فد خرج الشاعر خروجًا حسنًا إذ جعل من مدح الأفضل ملجأ يعوّض به الألم والحسرة اللتين أصابتا قلبه من الخيانة، ويرفعان عنه وعن نفسه ما حل به من ألم الفراق والخيانة.

ومن حسن تخلّص ظافر قوله في مدح الشيخ محمد ابن أبي البركات[23]:

لعبت بالزمن الماضي فخلفّني

من بعده في زمان ظل يلعب بي

هذا بذاك فطبع الدهر مختلف

لابد من راحةٍ فيه ومن تعب

لكنْ تعوضتُ بالشيخ الأجل أبي

محمد خير أوطانٍ وخير أب

فالشاعر كان يتحدث في قصيدته عن شكوى الدهر فانتقل إلى غرض آخر في هذه القصيدة ألا وهو المديح، ففي هذا الخروج سهولة ويسر يشعرنا بأن المديح أمر طبيعي لاسترسال ما يعرضه من أفكار ويبسطه من معانٍ، ذلك أنه جعل لجوءه إلى الممدوح نتيجة طبيعية لزوال ما يعانيه من ظلم دهره، وينسيه ما هو فيه من حرارة الحرمان.

ومن حسن تخلصه أيضًا من الوصف إلى المديح قوله[24]:

خلال أخضر لم يعبث بزاهره

إلا النسيمُ وطلّ بارد شبم[25]

تدنوا الشقيقة فيه من أقاحيه

حتى كأنهما جد ومُبتسَّمَ

كأنه قد تغذّى من نوال أبي

عبد الإله الذي تروى به الأمم

فكان خروجه خروجًا جيّدًا ولطيفًا؛ لأنه جعل حيوية الشقائق معقودة بما يبذله الممدوح من عطايا تحيي السائلين.

ومن الخروج الموفّق عنده خروجه من الغزل إلى المديح، فقد قال في قصيدة يمدح فيها الأفضل[26]:

وأُ بْصرُ شمس غُرَّته إذا ما

تراءت بين أفلاك الجُيوب

فآمنُ باللقاء من الثنائي

وأظفر بالحديث بلا رقيب

كما أمن الأنام بأرض مصر

بشاهنشاه[27] من ألم الخطوب

هو الملك الذي لولا نداه

لما رقَّ الزمانُ على أديب

فربط الأمان من الفراق باللقاء، كما أمن الناس في أرض مصر من شر الخطوب بحكم الأفضل العادل، وهذا من محاسن تخلّص الشاعر.

ومن جودة أيضًا ما قاله في النسيب ومنه إلى المديح فقال[28]:

قد كنت أحذره ولكن غرَّني
فأعادني هدفًا لنيل رُماته
ومضى لفيض مدامعي بسجامه
ودوامه وفراقه وثباته
فكأنه فيضُ النوال مُقَسَّمًا
في الخلق من كفّي أبي بركاته

ففاضت دموعه عذابات الهوى والعشق، كما فاضت كفّ الممدوح جودًا بالعطايا، فكان هذا التخلص سهلًا ميسورًا لا تعقيد فيه وقد ورد هذا التخلّص من دون اعتناء وقد أجاد الخروج كذلك في مدح صديقه أبي عبد الله محمد[29]:

والمال يذهب والثناء مخلّد
يحيا به الإنسان وهو دفين
يا هذه، ماذا أفاد بملكه
فرعون أو بثرائه قارون؟
قالت: فهل لك من يعوّضك الغنى؟
قلت الأجل السيدُ المأمونُ
مُلكٌ لو اقتدت البحارُ بجوده
لم ينجُ من تيارهنَّ سفينُ

فقد تخلص من الحكمة إلى المديح بطريقة جميلة وسلسة، حين جعل تعويض المال مقترنًا ببذل وعطاء الممدوح.

ومثلما أجاد الشاعر تخلصه من المقدمات إلى الأغراض الأصلية في عددٍ من قصائده، لكنّه أخفق في بعضها الآخر، إذ قفز من المقدّمة إلى الغرض الأصلي للقصيدة قفزًا واضحًا يكشف عن هوة عريضة بينهما، ومن ذلك تخلّصه من الحكمة إلى المديح في قوله[30]:

فانهض إذا كانت العلياء ماثلة
أولًا فقم في ترجيها على قدم
فآفة المرء في كسب العُلى سببٌ
من قوله (سوف) أو من قوله (فكم)
لا تتّكلْ في ترقيِّها على نسبِ
وأعمل لنفسِك واحذر خطة السَّأَمِ
هذا ابن من دانت الدنيا لِهمتِّه
واستعبد الخلق من عرب ومن عجم
الأفضل الملك العدل الذي عَظُمتْ
أخطاره فهي تستغنى عن العِظم

حيث خرج من النصح والإرشاد إلى المديح خروجًا لم يهيئ له، وهذا من المذموم في التخلّص.

ومن رديء التخلص قوله يمدح الشيخ أبا البركات وقد تخلّص من الغزل إلى المديح[31]:

يا مسقمي يجفون تدَّعي سقمًا
لا أدَّعي مثلها زُورًا وبهتانًا
بي ما بخصرك من سقم، وموجبِه
صَدٌّ كردفك تعنيفًا وعدوانًا
قصدت ظلمي بلا ذنبٍ كما ظلمت
كفَّاك تغرك بالمسواك أحيانًا
يا أوحد الناس في خَلقٍ وفي خُلق
هلاّ، أضفت لذاك الحُسن إحسانًا

حيث شدّ أسماعنا بغزل يدلُّ على خبرة في مخاطبة النساء، ثم يفاجئنا من دون أن نتهيأ بمدح شيخه بشكل مباغت، ونفوسنا لا تزال متعلقة بالغزل.

مما سبق يتضح لنا أنّ الخروج الجيد ينبغي أن يكون بعضه آخذًا برقاب بعض، ويصبح كأنه قد أفرغ في قالب واحد كما ينبغي أن تكون أجزاء الكلام ملتحمة، بحيث لا

يشعر السامع بالجفوة أو الحواجز بين الغرض الذي كان فيه الأديب والغرض الذي يليه، فالتخلّص الحسن يحتاج من صاحبه إلى الحذق وحسن التصرف.

المبحث الثالث: الانتهاء أو الخاتمة

الانتهاء أو الخاتمة:

يراد به المقطع عند أبي هلال العسكري، وهو عنده آخر بيت في القصيدة، وينبغي أنْ يكون أجود بيت فيها، وأدخل في المعنى الذي يقصده الشاعر في نظمها[32].

ويسميه ابن رشيق الانتهاء، وهو حسن الخاتمة[33]، والانتهاء عند ابن رشيق: "قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أنْ يكون محكمًا: لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أوّل الشعر مفتاحًا له وجب أنْ يكون الآخر قفلًا عليه"[34].

وهكذا عُني النقّاد بآخر القصيدة عنايتهم بالمطلع والمتن؛ لأنّه: "ربما حفظ من دون سائر الأبيات في غالب الأحوال"[35]، ومن هنا يستوجب على الشاعر ألاّ يقطع قصيدته "والنفس بها متعلقة، وفيها راغبة مشتهية، ويبقى الكلام مبتورًا كأنّه لم يتعمد جعله خاتمة[36].

ومن خلال ما سبق نفهم من كلام النقّاد أنْ يختتم الشاعر قصيدته بحكمة عظيمة، أو بمثل سائر ترغبه النفوس، وتطرب له، أو بدعاء في حضرة الملوك أو الحكام، أو بتشبيه حسن، وما إلى ذلك مما تستريح له الأسماع وتألفه النفوس وتطرب له، بما يفيد انتهاء القصيدة واكتمال الغرض.

وشاعرنا من الشعراء الذين أحسنوا في اختتام قصائدهم تارة، وأخفقوا تارة أخرى، فمن أمثلة المقاطع الجيّدة عنده قوله في مدح الأفضل[37]:

لا زال عُمرك كالأفلاكِ دائرةً *** يكرر الدهر منه كلَّ ما ذهبا

فقد حُسن ختامه بالدعاء بطول العمر وتجدده للممدوح، بعد أن عَّدد خصاله.

ومن ذلك أيضًا قول ظافر في ختام قصيدة مدح فيها الآمر[38]:

فابق مسرورًا مهنئ كاسبًا *** لأيادي البيض أسنى مكسب

أبدا تسمو وذكرك حلى *** زِنةِ الشعرِ وسجْع الخُطب

فالدعاء للممدوح بدوام الحياة والهناء والرفعة من الخواتيم التي يطيب للممدوح أن يسمعها، وتنبئ له وللسامعين أن القصيدة قد بلغت نهايتها، ومنه في ختام قصيدة مدح فيها الآمر[39]:

وصلى الإله وأهل السماء *** عليك صلاة يليها السلام

فقد ختمها بالصلاة والسلام وهذا من المستحبّ في الخواتم، ومنه ما قاله في ختام قصيدة مدح فيها الأفضل[40]:

ولست مكافئًا بجميع مدحي *** عطاءَك بل أقول: عسى أُعانُ

ومنه في ختام قصيدة مدح الآمر قوله[41]:

فلا زلت تلقى كل عيد وموسمٍ

وملكك بالتوفيق والسعد مُشددّ

ودُمت لها مستقبلًا ومُشيعًا

بقاءٌ يبيد الحاسدين ويْمتد

فهذا الختام حسن؛ لأنه أوحى إلى السامع بانتهاء الكلام، أمّا لفظه فهو حسن رشيق، وهو عند القزويني أحسن أنواع الانتهاء، ويسمّيه براعة المقطع[42].

وفي مدح أحد قواد الأفضل قال في آخر قصيدته وأحسن القول في الختام[43]:

فأسعد بوافدٍ عيد النحرِ مقبلًا

أمثاله في سرورٍ ليس ينصرمُ

في ظلِّ نعمةِ شاهنشاه مشتملًا

بفضلهِ حيث لا ضعفٌ ولا هَرَم

فالشعور بانتهاء القصيدة واضح في هذه الخاتمة وهو حَسَن، إضافة إلى الحديث عن السعادة والسرور اللذين لا ينتهيان في ظل نعمة القائد العظيم، كما أنّ الشاعر قطع قصيدته بتشبيه مليح حسن الوقع، ومما يستجاد له في الخاتمة قوله في شوقه للإسكندرية[44]:

على تلك الديار ومنْ حَوتَها *** سلامٌ كالسلامة يُسْتَطابُ

يكررهُ لساني بل كتابي *** بل الأيام إنْ دَرَس الكتابُ

فهذه الخاتمة تشعر السامع بانتهاء القصيدة لورود السلام فيها، فهو واجب لوطن فارقه؛ كان قد وصفه، ووصف غيابه عنه في الأبيات السابقة، فالشاعر قطع قصيدته بمعنى بديع ولفظ شريف، ومن جيد ما قطع به الشاعر قوله في النهي عن ذُلّ السؤال [45]

فلا تكتسبْ غير القناعة إنها

تجارةُ حُرّ ليس تخلو من الربِح

نصحتك فأقبل أو فسوف ترى إذا

قصدت خلافي في ما يفوتك من نصحي

فكانت الإجابة وحسن هذه الخاتمة يعود إلى عرض الشاعر البديل عن سؤال الناس والإلحاح في الطلب، وهو القناعة بما يعطيه الله لعباده والرضا به، وإنّ مخالفة ذلك سوف تؤدي بصاحبه إلى الضرر، الذي لم يشأ ذكره، بل ترك للمنصوح تقديره، زيادة في تهويل النتائج فهذان البيتان جمعا جميع ما تحتاج إليه النصيحة في البعد عن ذلّ السؤال، وطلب العفة وحفظ ماء الوجه والكرامة، ولو كان هذان البيتان في المديح لكانا أسوأ ما قيل في الخواتيم.

ومن أجود قوله في قصيدة نصح فيها النّاس[46]

فلا تتركنْ أمرًا مخافة قائلٍ

فإن الذي تخشى وتْحذر حاصل

فق أنهى الشاعر قصيدته بهذه الحكمة التي نبّه فيها على مخافة النّاس؛ لأنّ كل شيء حاصل بأمر الله تعالى فتعد هذه الخاتمة من االلطيفة التي توفرت فيها الشروط التي ذكرها النقاد القدامى كأبي هلال العسكري وابن رشيق، وكما أجاد ظافر الحداد في بعض الخواتيم التي أنهى بها معظم قصائد نجده أحبط في القليل من هذه الخواتيم ،فنذكر من ردئ الانتهاء عنده قوله متغزّلًا[47]:

وإذا هواه أحاط بي فكأنني *** فيه على التحرير نقطة قُطبه[48]

فهذه نهاية لا تشعر النفس معها بأن الكلام انتهي إلى غاية، بل تترقب المزيد من الرسم لشعور الهجر، ومثله قوله[49]:

عجبت لرقه زُناره *** ودقة ما ضَمَّه أعْجبُ

فلا يزال في النفس حاجة إلى المزيد من القول في الوصف والإيضاح.

ومن عيوب الإنتهاء الذي لا يشعرنا بنهاية الكلام، وهذا كما قال ابن رشيق: "كل ذلك رغبة في أخذ العفو، وإسقاط الكلفة"[50]، ومنه قوله في قصيدته مدح فيها الأفضل[51]

شاد المعالي فوق أسَّ ثابتٍ

في الفضل صار إليه عن موروثه

والرعبُ أولُ رُسْله لعدوه

فحَذار ثم حَذَارِ من مبعوثه

... وبعد فذاك عرضٌ القصائد عند شاعرنا ظافر الحداد، أخفق في بعضها، وأجاد في معظمها، وقد لاحظنا إنّه قد أكثر من الصلاة على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– والدعاء للممدوح، فأجاد في معظمها، كقوله (صلى الإله عليك).

ومما سبق يتضح أنّه ينبغي أن يكون آخر بيت لدى الشاعر أعذب بيت في قصيدته، وأبين في المعنى ؛لأنّه آخر ما يبقى في أذهان النّاس لذا يجب أنْ يحتوي على حكمة بالغة أو مثل سائر لحاجة النّاس إليه عند المحاضرة والمجالسة أو يقطعها على تشبيه مليح ؛لأنّه أوعى للحفظ.

خاتمة البحث ونتائجه

خصصت بحثي هذا لدراسة (الاستهلال – والتخلص – والانتهاء) في شعر ظافر الحداد الشاعر الفاطمي، بهدف الكشف عن موهبة الشاعر في هذا الجانب المهم من جوانب جودة شعره في بناء قصيدته، وفصّلت الحديث عنها بالشواهد الشعرية التي تخدم موضوع البحث، وبعد هذه الرحلة في هذا الجانب خلصت إلى نتائج عدة من هذه الدراسة كان أهمها:

1– إن هذه الدراسة كانت لإلقاء جزء من الضوء على الجانب الفني من شعر ظافر الحداد وهو نصيبه عن جودة الاستهلال والتخلّص والانتهاء.

2– كانت أغلب الشواهد في هذه الدراسة من شعر المديح؛ لأن شاعرنا من أبرز الشعراء الذين اعتنوا بالمديح لاسيما السياسي منه حيث يكاد يكون ديوانه ميدانًا رحبًا للمديح الذي أجاد وأبدع في أغلبه.

3– إنّ القصيدة الظافرية تأرجحت بين وحدة الموضوع وتعدده؛ فقد كان لتعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة مكانًا مناسبًا لإظهار قدرة شاعرنا على التخلص في أغلب الأحيان وإخفاقه في أحيان قليلة.

4– برز إبداع الشاعر في الاستفتاح في جلّ قصائده وعلى رأسها القصائد ذات الموضوع الواحد.

... والحمدلله أولًا والصلاة والسلام على نبيه المبعوث هاديًا ومبشرًا ونذيرًا وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

الهوامش

1. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، ط1: 181/1.
2. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، ت: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 1970: 2/ 50.
3. المصدر نفسه: 540/2.
4. العمدة: 181/1.
5. نفسه: 1/ 181.
6. الفهة والفهاهة: العيُ– مختار القاموس، الطاهر الزاوي، 485.
7. الآمر: اسمه منصور، وكنيته أبو علي ولقبه الآمر بأحكام الله، استخلف وله خمس سنوات وبقي في الملك 29 سنة و 9 أشهر ولد عام 490 هـ، توفي عام 525هـ، وكانت السنة الأولى لولايته 496هـ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة: 170/5.
8. ديوان ظافر الحداد ابن الاسكندرية، تحقيق: حسين نصار: 11.
9. الديوان: 115.
10. السابق: 218.
11. اغلاف القلب أو حجابه.
12. الديوان: 254.
13. المصدر السابق: 291.

14. الأفضل، بدر الجمالي، أرمني الجنس، أحد وزراء مصر من سنة 487 إلى 515 هـ ولي الوزارة بعد وزارة والده توفي سنة 515هـ.
15. الديوان: 305.
16. المصدر السابق: 46.
17. الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم محمد الخليفة المستنصر الثامن من خلفاء مصر من بني عبيد، استمرت خلافته من سنة 524 هـ إلى جمادى الآخرة 544، توفي سنة 20 من ولايته عام 544هـ.
18. الديوان: 322.
19. العمدة: 194/1.
20. ينظر: عيار الشعر لابن طباطبا العلوي، شركة فن الطباعة، مصر: 126.
21. الديوان: 76.
22. السابق: 78.
23. الشيخ أبو البركات: هو محمد بن محمد بن صالح بن عثمان، وهو من أعيان الإسكندرية كثيرًا ما قصده ظافر طالبًا ولم يردّه خائبًا، وكان أقرب الأصدقاء إليه – أخبار مصر لابن ميسر، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة، 1919م: 62.
24. الديوان: 285
25. شبم البرد: اللسان مادة شبم.
26. الديوان: 52.
27. شاهنشاه: كلمة فارسية تعني ملك الملوك.
28. الديوان: 71.
29. السابق: 320.
30. السابق: 276.
31. نفسه: 311.
32. ينظر: كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، مطبعة محمد علي صبيح : 502– 503.

33. ينظر: أسس النقد الأدبي عند العرب، أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة: 312.
34. العمدة: 1/ 198.
35. خزانة الأدب وغاية الأرب لتقي الدين بن حجة الحموي، المطبعة الأميرية ، 1291هـ: 582.
36. العمدة: 199.
37. الديوان: 38.
38. المصدر نفسه: 46.
39. المصدر السابق: 292.
40. المصدر نفسه: 310.
41. المصدر نفسه: 121.
42. الايضاح لمختصر المفتاح، لجلال الدين الفزويني، المطبعة المحمودية التجارية بمصر: 134/3.
43. الديوان: 289.
44. الديوان: 30.
45. المصدر نفسه: 83.
46. المصدر نفسه: 374.
47. المصدر نفسه: 10.
48. القُطب: نجم تعرف به القبلة.
49. الديوان: 56.
50. العمدة: 1/ 199.
51. الديوان: 74.